أهمية المنهج الشفوي في الكتابات التاريخية

أ. د. محمد مجاود

جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس

تشوب العلوم الاجتماعية العديد من المشاكل المنهجية التي من أهمها صعوبة وضع تعريف محدد للمفاهيم المستخدمة حيث عادة ما يصعب تقديم تعريف شامل مانع جامع لأي ظاهرة معرفية.

وعلى الرغم من اعتراف الباحثين بهذه المشكلة، إلا أنها لم تمنعهم من البحث المنظم، ومحاولة الوصول إلى تعريف إجرائي أو تعريف محدد لشرح الظاهرة المعرفية موضوع الدراسة. ومن هذا المنطلق تهدف هذه الدراسة إلى التطرق إلى مفهوم المنهج الشفوي الذي لم يظهر إلا حديثا، وأثار ومازال يثير العديد من الجدل والنقاش العلمي حول مضامينه، والأسباب التي أدت إلى انتشاره في أوساط الباحثين في العلوم الاجتماعية وخاصة في التاريخ. نحاول من خلال هذه الدراسة أن نتوقف عند التحاليل التي تناولت هذا الموضوع بهدف معرفة المقصود منه وتطوره، والإشكاليات المطروحة حوله ثم أخيرا أثره في الحقلين العلمي والإجرائي.

أصبح مفهوم المنهج الشفوي شائع الاستعمال في الكتابات التاريخية والاجتماعية، وبالرغم من شيوع استخدام هذا المفهوم إلا أنه لم يحدد بالتدقيق.

ما هو المنهج الشفوي؟

يعتبر المنهج الشفوي أداة مهمة في تسجيل الشهادات الحية حول قضايا مختلفة تهم حياة جميع الناس، ويعد كذلك أحد طرق البحث التاريخي يعزز التعددية في تناول الخبر التاريخي، غالبا ما يكون

مستبعدا من المصادر الأرشيفية المكتوبة. ويمكن له أن يرقى إلى منهج علمي يسعى إلى تحويل الرواية الشفوية إلى نصوص محفوظة باستعمال الوسائل والتقنيات الحديثة لتوثيق الأخبار الماضية من خلال تدوين الوقائع التاريخية على أسس علمية متينة، ونستعين في ذلك على آلات التسجيل بالصوت والصورة، وتساهم هذه التقنيات الحديثة في عملية تطوير مصادر التاريخ الشفوي وإعطاءها المصداقية اللازمة لها حتى تكون في متناول الباحثين. يعتمد هذا المنهج بالأساس على إجراءات بحثية، نقطتها المحورية المقابلات المباشرة بين الباحث وأصحاب الشهادات، أي الفاعلين التارخيين، والتي تساعد لا محالة على تنشيط الذاكرة بغية استنباط المعلومات اللازمة ليتم التدقيق فيها والتأكد من صحتها مع مقارنتها بالمصادر الأخرى. فإن المنهج الشفوي هو الذي ينتج التفاعل بين النص المكتوب والرواية الشفوية لتجاوز الضعف الملحوظ فيهما. إن التاريخ الشفوي هو منهج بحث متعدد التخصصات، يخص جل العلوم الإنسانية التي تفتح المجال لمقاربات إشكالية جديدة ومعقدة.

بدأ الاهتمام بالمنهج الشفوي عند العرب والمسلمين منذ القرون الهجرية الأولى معتمدين على منهج الإسناد بغية تدوين الحديث الشريف والسيرة النبوية والمغازي وسير وأعمال الصحابة الأقربين وتاريخ الفتوحات الإسلامية.(الوافي، م، 1998) وقامت المؤسسات الجامعية والبحثية منذ أربعة عقود في المجتمعات الغربية بإعادة تجديد هذا المنهج انطلاقا من ما وصلت إليه العلوم والمناهج من تقدم، حيث أولت له اهتماما علميا كبيرا، لما له من دور فعال في الدراسات التاريخية والأنتربولوجية. وتجلى ذلك من خلال إنشاء مراكز وجمعيات علمية تهتم بمجال التاريخ

الشفوي.(ظاهر، م. 2008) وبالرغم من المجهود المبذول في بلورة هذا المنهج الجديد في شقه النظري وتحديد تقنياته الإجرائية، إلا أنه بقي متأخرا نسبيا في المجتمعات حديثة الاستقلال مثل الجزائر التي تحتاج إلى جمع الشهادات الحية من أولائك الذين عايشوا أحداث ثوراتها التحررية ضد الوجود الاستعماري وتكليف مؤسسات علمية ترعى هده العملية النبيلة. لم ينتبه المؤرخون ورجال الدولة في الجزائر على حد سواء لأهمية استخدام التاريخ الشفوي إلا في وقت متأخر لتدوين تاريخ بلدهم المعاصر الذي مازالت تهيمن عليه المدرسة الاستعمارية. إن الشهادات باعتبارها ذكريات شخصية سوف تضيع مع رحيل أصحابها إن لم تسجل وتوثق على أن تترك عملية المعالجة والنقد والتحليل للمؤرخين في وقت لاحق. إن لهذا النوع من المصادر (الروايات الشفوية) أهمية كبيرة تساهم في إثراء المصادر وتنويعها بغية توسيع المعرفة التاريخية.

أهمية المنهج الشفوي:

نجد أن وصف وتفسير الوقائع التاريخية يعتمد بالدرجة الأولى على الوثائق المكتوبة، ويتفادى في هذا الشأن الباحث في الدراسات العليا في غالب الأحيان جمع الشهادات الحية باعتبارها عمل شاق ومتعب، بالرغم من تصاعد دورها في الدراسات التاريخية الجادة في الأوساط الأكاديمية. إن الوثائق وحدها أصبحت لا تكفي لوصف وتغطية الوقائع المعاشة بكل تفاصيلها، بل نجدها تلقي الضوء على جزء من هذه الوقائع حسب نظرة الغالب وتصوراته.

لقد شددت الكثير من الدراسات الحديثة على أهمية الرواية الشفوية لسد الفراغ الذي يمكن أن تتركه الوثائق الأرشيفية، ليس فقط

عندما تعكس الأحداث الماضية بدقة، بل لأنها تعبر كذلك عن شيء من العلاقة بين الماضي والحاضر والامتدادات بينهما، لأن رواية الأفراد تعكس إلى حد ما خلفياتهم المعاصرة لأنهم يتأثرون بالمحيط الاجتماعي السائد وبحياتهم الحاضرة. فالفاعل التاريخي لا يصف الماضي الذي يعرفه إلا من خلال مثل وقيم موجودة في ذهنه. وللمنهج التاريخي فوائد كثيرة تتمثل في تدقيق بعض المسائل المتداولة في سوق الكلام لتحكي تفاصلها مع تقديم البراهين والحجج مع ترك حق الرد عليها، كما أنه يفتح المجال إلى أصحاب الرواية أن يعبروا عن تصوراتهم حول الأحداث موضوع الدراسة، غالبا ما تكون مستبعدة من المصادر الأرشيفية المكتوبة الأخرى، وعلى هدا الأساس أصبحت الشهادات الحية تأخذ مكانة هامة في الدراسات التاريخية والاجتماعية المحلية وخاصة تلك المتعلقة بتاريخ الحاضر أو القريب زمنيا ، والدليل على ذلك نشر المذكرات لأصحابها لإطلاع الرأي العام على مواقفهم إزاء الأحداث التي عايشوها. إن المذكرات باعتبارها شهادات حية والتي يلجأ إليها أصحابها تمثل مساهمة هامة قي تسليط الضوء على الكثير من القضايا التاريخية التي كانوا طرفا فيها والتي ما زالت تثير التساؤلات والنقاش البناء في أوساط الأكاديميين.

تكمن أهمية التاريخ الشفوي في ملأ الفراغ وسد ما ضاع من وثائق مكتوبة أو ما صدر من طرف السلطات الاستعمارية والتي تعتبر إرثا ثقافيا مهما تعكس إلى حد ما جزءا لا يستهان به من تاريخ نضال الشعوب المستعمرة، فهو يعتبر مصدرا للمعلومات الناجمة عن ما تبقى من ذكريات الناس حول الكثير من المسائل التاريخية تخص جميع ميادين

حياتهم. ويتفق الباحثون على أن الرواية لا يمكنها أن ترقى إلا مستوى الوثيقة المكتوبة لأنها ذكريات يمكن أن تشوبها بعض من الغموض والتباسات، كما أن صاحبها معرض للنسيان وتآكل الذاكرة.

المنهج الشفوي والثورة الجزائرية:

لا شك أن كتابة تاريخ الجزائر المعاصر وتاريخ الثورة التحريرية على وجه التحديد يتم عبر توظيف الوثائق الأرشيفية وجمع الشهادات الحية من أولائك الذين عايشوا أحداثها بغية الوصول إلى الحقيقة التاريخية النسبية. وبالرغم من أن الوثيقة الأرشيفية تعد من المصادر الأساسية في الكتابة التاريخية كما يقول لوسيان لوفبر :"لا تاريخ بدون وثائق ولا علم بدون منهج (❖) والتاريخ يصنع من الوثائق، إلا أنه في يومنا الحاضر لا يمكن الاستغناء عن الشهادات الحية، بل أصبح من المفيد الاعتماد عليها بالنظر لتطور المذهل التي تعرفه وسائل تكنولوجية الإعلام والاتصال والتي أصبحت أداة مهمة في عملية تدوين هذه الشهادات بالصوت والصورة مع التعليق عليها، (شهادات على العصر وشهادات على الثورة). وهكذا يتبين لنا بأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء عن الشهادات الشفوية في دراسة الوقائع التاريخية الغير البعيدة زمنيا، بل أصبح من الضروري التأكيد عليها من الناحية العلمية والمنهجية، ليظل المنهج الشفوي ممارسة معرفية في ظل التحولات الكبيرة التي تعرفها وسائل الإعلام والاتصال. فما هي قيمة تسجيل هذه الشهادات بالنسبة للدارسين والمثقفين، وخاصة في السياق الثورة التحريرية؟ إن عملية تسجيل الشهادات الحية المتعلقة بتاريخ الاستعمار الفرنسي للجزائر وخاصة في فترتها المتأخرة، تمكن الشعب الجزائري من استعادة حقوقها المعنوية

ومسائلة أولائك الذين ارتكبوا جرائم في حقه، فهي جد مفيدة في توثيقها (المجازر، الإبادة الجماعية، التعذيب، الاغتصاب، القتل والتشريد، النهب والتدمير، بناء المحتشدات والمعتقلات...) ليست هناك مأساة في التاريخ الحديث أكثر قسوة وفظاعة وأقل وصفا من تاريخ الثورة التحريرية التي تفنن الاستعمار الفرنسي من أجل إخمادها في استعمال كل وسائل القمع والتنكيل والإبادة. (Febvre, l. 1965)

كل واحد منا يدرك ضرورية تدوين تاريخ الثورة التحريرية ويدرك أهمية الشهادات في الأبحاث التاريخية وخاصة تلك المتعلقة بهذه الثورة، فهي مكملة للمصادر المكتوبة التي تتضمن هي كذلك على مجموعة من المعلومات المتعلقة بأحداث الثورة لا غناء عنها، فلا يمكن أن تطرح نفسها بديلا عنها أو أن تستعمل بمعزل عنها. يعد المنهج الشفوي في هذا الميدان الأكثر تناسبا مع طبيعة هذه الدراسات، ولقد عرف هذا المنهج رواجا كبيرا في أوساط المختصين والجامعيين الغربيين لما له من أهمية وفائدة علميتين يستغل بطريقة محكمة لمقاربة الحقائق التاريخية بموضوعية من خلال مقارنة المعلومات المختلفة والمتنوعة المستقاة من مختلف المصادر. وتبرز أهمية هذا المنهج أكثر عند تناول مواضيع تاريخية تكون أقرب إلى الحاضر، بمعنى ما زال يوجد الفاعلين على قيد الحياة يمكنهم المساهمة سواء من خلال نشر مذكراتهم أو الإدلاء بآرائهم حول القضايا التي عايشوها مباشرة. ويبدو أن الشهادات الحية المسجلة، بالرغم من قلتها نظرا للحجم العمل المطلوب في هذا الميدان لتغطية كل مجريات أحداث الثورة التحريرية والوقوف عند تداعياتها، لم تحظى بالأهمية المطلوبة في دراسة تاريخنا المعاصر من قبل المؤرخين. فإن الشهادة

الصادرة عن الأجيال المعاصرة لتلك الأحداث هي الكفيل الوحيد الذي يساعدنا على تدقيق المعلومات المدونة في الورق وتقييمها.(أبو القاسم، س، 1981: 43)

قواعد المنهج الشفوي:

حتى يتسنى للباحث الاعتماد على الشهادات الحية، يجب مراعاة القواعد المنهجية التالية.

1- أن يكون الشاهد قد عايش الحدث التاريخي وانخرط فيه.

2- حرية التعبير السائدة في المجتمع والقدرة على قول الحقيقة بتفاصيلها.

3- التحضير الجيد للمقابلة مع توفير الجو النفسي والمادي اللائقين لتجاوز العقبات التي يمكن أن تقف أمام نجاحها و تقلل من مصداقيتها مع استعمال وسائل التسجيل إن أمكن ذلك.

4- أن يكون الباحث ملما بموضوع محل الدراسة إلماما واسعا.

5- أن يملك الباحث القدرات المعرفية والمهارات التقنية اللازمة لمحاورة الناس ومناقشتهم.

6- نقد المصادر الشفوية والتدقيق من صحتها وتجريديها من التأثيرات الذاتية، لأنه يمكن لها أن تكون غير دقيقة وغامضة نظرا لاضطراب الذاكرة بالنسبة للمتقدمين في السن، كما أنها لا تخلو من العاطفة، حيث أن صاحبها بطبعه يميل إلى تضخيم الأنا من خلال إبراز دوره والتقليل من دور الآخرين.

7- الحرص على التعرف إلى مقاصد الفاعل التاريخي، أي محاولة معرفة نواياه الصادقة.

8- نقل المصدر الشفوي إلى مصدر مكتوب بعد مقارنته مع المصادر الأخرى.

المراجع والمصادر:

الوافي محمد عبد الكريم: 1998، منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس.

ظاهر مسعود: 3 مارس 2008، منهجية التاريخ الشفوي، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد 36.

في المدة الأخيرة قام بعض من إطارات الثورة الجزائرية نشر مذكراتهم وعبروا عن مواقفهم إزاء الأحداث التي عايشوها.

- Febvre Lucien : 1965 , Combats pour l'Histoire, Paris , Seconde Edition, Librairie Armand Colin.

**- حصتين تقدم من طرف أحمد منصور لهذا الغرض في قناة الجزيرة.

- أبو القاسم سعدالله: 1981، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، الطبعة الثانية، الجزائر، المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع.